الفصل الرابع

سياسة المرابطين في دولتهم المجيدة

المبحث الأول

نظم الحكم والإدارة في دولة المرابطين

أولاً: النظام الإداري:

1 - نظام إمارة المسلمين:

كان النظام السائد في إمارة المسلمين عند المرابطين يعتمد على اختيار الأمير وفق فقه الشورى، وكانوا حريصين على تطبيق قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: 38].

وكان زعماء المرابطين يتشاورون في الوسائل التي تعين على تمكين الحق وإظهار الصواب، ونشر الصلاح بين العباد، واقتدوا بالقرآن الكريم في توجيهه للرسول ﷺ: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159].

«أي لا يصدنك ما كان منهم من خطأ رأيهم فيما بدا منهم يوم أحد عن أن تستعين برأيهم في مواقع أخرى، فإنما كان قد حصل فلتة تغفر وعثرة تُقال وشاورهم في أمر الحرب وأمثاله مما يجري فيه المشاورة»[1].

وقد دلت الآية على أن الشورى قد أمر بها الرسول ﷺ في مهمات الأمة ومصالحها كالحرب ونحوها، وذلك في أمر التشريع، لأن أمر التشريع إن كان فيه وحي فلا محيد عنه، وهي توجيه لكل ولاة الأمر بعده أن يتشاوروا عن أمر الدين والدنيا، وما ليس فيه نص واضح، وهي تشمل هنا المشاورة في شؤون الأمة ومصالحها[2].

وكان مذهبهم في الشورى مذهب المالكية وليس الخصوص، قال ابن خويز

---

(1) انظر: تفسير أبي السعود، (ج1/ 558).

(2) انظر: تفسر القرطبي، (ج4/ 205).

منداد: «واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون، وفيما يشكل من أمور الدين، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح، ووجوه الكتاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها»[1].

وأشار ابن العربي إلى وجوبها بأنها سبب الصواب، فقال: «والشورى مسبار العقل وسبب الصواب»، ويشير إلى أننا مأمورون بتحري الصواب في مصالح الأمة وما يتوقف عليه الواجب فهو واجب[2].

ويذهب ابن عطية أيضاً إلى الوجوب، بل يؤكّد هذا الوجوب فيقول: «الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم فعزله واجب، وهذا ما لا اختلاف فيه»[3].

لقد كان نظام الشورى هو الأساس الذي اعتمده المرابطون في نظام حكمهم في بداية دولة المرابطين قبل يوسف بن تاشفين، فقد كان المرابطون يختارون بكامل الحرية رئيسهم الذي يتم تعيينه بعد عقد مجلس من زعماء القبائل والولاة والعلماء والفقهاء يشارك فيه شيوخ المرابطين وأعيانهم، بهذه الطريقة تم اختيار عبد الله بن ياسين، الذي لم يحرص على استمرار الإمارة في أسرته، كما أنه لم يباشر أي ضغط على المرابطين في اختيار يحيى بن عمر ثم أبي بكر بن عمر، بل كانت وصيته الأخيرة للمرابطين قوله: «إياكم والمخالفة والتحاسد على الرياسة فإن الله يؤتي ملكه من يشاء، ويستخلف في أرضه من أحب من عباده، ولقد ذهبت عنكم فانظروا من تقدمونه منكم، يقوم بأمركم ويقود جيوشكم، ويغزو عدوكم، ويقسم بينكم فيئكم، ويأخذ زكاتكم وأعشاركم»[4].

ومن هذه الوصية يتبين أن الزعيم الأول للمرابطين، لم يكن يرى طريقة الحكم الوراثي، أما يوسف بن تاشفين فقد كان يخشى أن يعود الأمر فوضى بعده وأن تنفصم

(1) المصدر السابق، (ج4/ 205).
(2) ابن العربي.
(3) ابن أبي زرع القرطاس، ص(90).
(4) المصدر السابق نفسه.

عرى هذه الوحدة، وتنتهي هذه الدعوة التي عمل جاهداً على تبليغها زهاء نصف قرن، لذلك رأى يوسف أن يعين والياً للعهد يستخلفه بعد موته، وهكذا حدث انحراف في اختيار الحاكم عند المرابطين من الشورى إلى النظام الوراثي منذ أن اختار يوسف بن تاشفين ابنه علياً والياً لولاية العهد، وكان اجتهاد يوسف بن تاشفين في هذا التعديل الخطير يعتمد على رأيه أن اجتهاده ذلك يحفظ وحدة بلاده ودولته، ويقضي على التنافس من أجل الحكم ورأى مصلحة بلاده وشعبه تقتضي اختيار ابنه.

كان من الطبيعي أن يمهد لفكرته في اختيار ولي العهد، ولذلك شاور كل من يهمه الأمر حول هذا الاختيار، ولهذا بادر بمشاورة الفقهاء والقضاة وزعماء القبائل وأفراد الأسرة المرابطية وكبار رجال الدولة في سنة 495هـ/ 1101م، وناقشهم في المبررات التي دفعته إلى اختياره، فوافقه الجميع على ما اعتزم عليه، وعلى أثر ذلك قرىء مرسوم البيعة الذي يتضمن الأسباب التي حملته على هذا الاختيار، والشروط الواجب توافرها فيه، والمبادىء التي ينبغي أن يسير عليها، وهذا المرسوم كتبه الوزير الفقيه أبو محمد بن عبد الغفور، وكان من أعلام البلاغة في ذلك العصر»[1].

ونستخلص من نص الوثيقة التي ذكرتها فيما مضى: أن يوسف بن تاشفين اتبع مبدأين في اختياره ولده أبي الحسن علي ولياً لعهده:

أولهما: مبدأ الاختيار:

فقد أشارت الوثيقة التي ذكرتها إلى أن يوسف قد اختار من بين أولاده من هو أصلح لقيادة تلك الدولة المترامية الأطراف: «فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالي واهتزازاً، وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازاً، فاستنابه فيما استرعى ودعاه لما كان إليه دعا»[2].

ثانيهما: مبدأ الشورى:

فقد أخذ يوسف به، وتمسك بما جاء في القرآن الكريم وما جاء على لسان نبيه ﷺ وما سار عليه الخلفاء الراشدون: «ودعاه لما كان إليه دعا، بعد استشارة أهل الرأي على القرب والنأي»[3].

---

(1) و(2) انظر: الحلل الموشية، ص(56، 57).

(3) انظر: الحلل الموشية، ص(56، 57).

كما أشار مرسوم البيعة إلى أنها كانت مشروطة ببعض الشروط اشترطها الأمير يوسف على ابنه، وأهم تلك الشروط التمسك بالمبادىء التي دعا إليها الإمام عبد الله ابن ياسين من إعلان الجهاد على أعداء الإسلام، واحترام الفقهاء والقضاة والعلماء، والعمل على إقامة العدل بين الرعية، بالإضافة إلى بعض الأمور التي تتعلق بضمان أمن الدولة من وضع سبعة عشر ألف فارس بالأندلس موزعة على أقطار معلومة، يكون منها بإشبيلية سبعة آلاف فارس وبقرطبة ألف فارس وباقي العدد على ثغور المسلمين للذب والمرابطة في الحصون المعاينة للعدو[1].

وفي عام 469 هـ دخل يوسف بن تاشفين قرطبة، وجمع كبار رجال الدولة وأمراء لمتونة وأشياخ البلاد، وقادة الرأي والفقهاء والعلماء والقضاة، وتلا عليهم عقد البيعة لابنه علي الذي سبقت الإشارة إليه، وضمنه الأسباب التي حملته على اختياره ولياً للعهد، ثم أخذ البيعة له من جميع الحاضرين، وأقسم هؤلاء يمين الطاعة والولاء، ثم وقّعوا على عقد البيعة، وقام على إثر ذلك، فأقسم أمام الحاضرين بالتزام شروط العقد وترسم السياسة التي رسمها أبوه، ثم أشهد الكتاب ووقع على الوثيقة[2].

أ - وفاة الأمير يوسف:

ثم عاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب، حيث مرض مرضه الأخير الذي استمر زهاء عامين وشهرين، وانتهى بوفاته عن مائة عام حافلة بالجهاد والدعوة وإعزاز دين الله، وكانت سنة وفاته 500هـ/ 2 سبتمبر 1106م، وكان ولي العهد يقوم أثناء مرض أبيه بتصريف أمور الحكم نيابة عن أبيه، ونجح نجاحاً كبيراً في إدارة دفة الحكم لدولة المرابطين، وكانت آخر وصية من يوسف لابنه في مستهل سنة 500هـ أوصى ولده وولي عهده بعده أبا الحسن علياً بثلاث وصايا أولها: «ألا يهيج أهل جبل درن ومن ورائه من المصامدة وأهل القبلة» والثانية: «أن يهادن بني هود بالأندلس وأن يتركهم حائلين بينه وبين الروم» والثالثة: «يقبل مِن مَن أحسن من أهل قرطبة ويتجاوز عن مسيئهم»[3].

ب - لقب أمير المسلمين:

كان زعماء المرابطين يطلقون على أنفسهم لقب الأمراء، وظل المرابطون يطلقون لقب الأمير على كل زعيم يتولى أمرهم ابتداءً من عهد أمير لمتونة أبي زكريا

(1) و(2) تاريخ المغرب والأندلس، ص(251).
(3) ابن أبي زرع، ص(103).

يحيى بن عمر اللمتوني، فتلقب به يحيى كما تلقب به أخوه أبو بكر بن عمر بعد وفاته، وعندما تولى يوسف بن تاشفين زعامة المرابطين منذ 464هـ ظل يتقلب بالإمارة إلى سقوط أبي بكر بن عمر شهيداً في أحد المعارك في سنة 480هـ/ 1087م وعندئذٍ أصبح يوسف الزعيم الأوحد للمرابطين، واجتمع إليه أشياخ قبيلته وعرضوا عليه أن يتلقب بأمير المؤمنين، لأن حقه أكبر من أن يلقب بالأمير فرفض ذلك قائلاً: «حاش أن أسمى بهذا الاسم إنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة وأنا رجلهم والقائم بدعوتهم»[1]، ولكنهم قالوا له: أن لا بد له من اسم يمتاز به على سائر الأمراء واقترحوا عليه لقب أمير المسلمين وناصر الدين، وأصبح العمل جارياً به عند سائر المرابطين، وقد صدرت الكتب تحمل هذا اللقب بعد وفاة أبي بكر بن عمر على القول الأرجح، وهذا نص الكتاب الذي أرسله إلى الولاة والقادة والعلماء: «بسم الله الرحمٰن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً: من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين إلى الأشياخ والأعيان والكافة أهل فلانة أدام الله كرامتهم بتقواه ووفقهم لما يرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد حمد الله أهل الحمد والشكر، وميسر اليسر وواهب النصر، والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر، وأنا كتبناه إليكم من حضرتنا العلية بمراكش حرسها الله، وأنه لما مَنّ الله علينا بالفتح الجسيم وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة وهدانا وهداكم إلى شريعة محمد المصطفى نبيّنا الكريم صلى الله عليه أفضل الصلاة والتسليم رأينا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم لنمتاز به على سائر القبائل، وهو أمير المسلمين وناصر الدين، فمن خطب الخطبة العلية السامية فليخطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى، والله ولي العدل بمنه وكرمه والسلام»[2].

ويرى بعض المؤرخين من أمثال أبي زرع في «روض القرطاس» إلى أن الأمير يوسف تلقب بأمير المسلمين في يوم الزلاقة، ولم يكن يُدعى به من قبل، وإن ملوك وأمراء الأندلس وكانوا ثلاثة عشر ملكاً بايعوه وسلموا عليه باسم أمير المسلمين وهو أول من سمي به من ملوك المغرب.

---

(1) دولة المرابطين، ص(162).

(2) المرجع السابق ص(162 - 163).

وقد تأثر شعب النيجر بشكل خاص بالمرابطين وأطلق على حكامه لقب أمير المسلمين وكانوا مالكيين في المذهب ويرجع ذلك إلى أن المرابطين هم الذين نشروا الإسلام في تلك الربوع النائية[1].

ج - نائب الأمير:

كان اتساع مملكة المرابطين سبباً في اتخاذ نواب ينوبون عنه حيث كان من المستحيل على أمير المسلمين أن يشرف وحده على تلك الدولة المترامية الأطراف، فعين بعض النواب المقربين إليه، فعين نائباً على شؤون الأندلس ونواباً على أقليم المغرب، وكان يراعي في اختيار النائب أن يكون أقرب الناس إلى أمير المسلمين، وأن يتوفر فيه حسن الإدارة والكفاية العسكرية ويعتبر ممثلاً أولياً لأمير المسلمين ويستمد نائب الأمير سلطته شخصياً، وكان ولي العهد نائباً للأمير، وتولى نيابة الأندلس، وكانت قرطبة هي المفضلة لإقامة ولي العهد لمكانتها السامية في نفوس الأندلسيين، وأول نائب عينه الأمير يوسف على الأندلس القائد سير بن أبي بكر اللمتوني، ثم بدَّل به ابنه أبا الطاهر تميم بن يوسف، وتلي نيابة الأندلس من حيث الأهمية نيابة فاس بالمغرب وكان النائب يستقر فيها عندما كان الأمير يوسف يعود إلى مراكش كي لا تحدث ازدواجية في السلطة[2].

كانت مهمة النائب بالدرجة الأولى عسكرية إذ كان عليه أن يخوض الحروب ويقمع الفتن وحركات التمرد يعاونه قادة كبار من لمتونة[3].

وكان من سياسة يوسف بن تاشفين مع نوابه مراقبتهم ولا يتيح لهم الاستقرار في مناصبهم لعهود طويلة حتى لا يعملوا على الاستقلال، فكان النواب دائماً معرضين للنقل من ولاية إلى أخرى.

وكان نائب أمير المسلمين يتخذ لنفسه كتّاباً يقومون عنه بالمكاتبات أو تسند

(1) دولة المرابطين، ص(162 - 163).

(2) حركات النظام السياسي والحربي عند المرابطين، ص(65).

(3) مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد 11، (ج2/ 27)، تحت عنوان الثغر الأعلى في عهد المرابطين، د. حسين مؤنس.

إليهم بعض الأعمال الإدارية، وممن ظهر من كتّاب نواب المسلمين علي بن يوسف في الأندلس الكاتب الأديب أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال كاتب الأمير محمد بن الحاج، وأبو بكر بن الصائغ كاتب الأمير أبي بكر بن إبراهيم، والزبير بن عمر اللمتوني كاتب تاشفين بن علي، وكانت حياة كل نائب من نواب أمير المسلمين صورة مصغرة من حياة هذا الأمير فكانوا يتخذون القصور والخدم والفقهاء والأعوان[1].

د - تولية الولاة:

كان الأمير يوسف يعين الولاة على الأقاليم من لمتونة بشكل خاص وصنهاجة بشكل عام فولى أمراء قومه الأقاليم، فقبل ضم الأندلس كان سير بن أبي بكر على مدائن مكناسة وبلاد مكلالة وبلاد فازاز، وولي عمر بن سليمان المسوفي مدينة فاس وأحوازها، وداود بن عائشة سجلماسة ودرعة، وتميم بن يوسف مدينة أغمات ومراكش وبلاد السوس وسائر بلاد المصامدة وتدلا وتامسنا وبعد ضم الأندلس عين يوسف بن تاشفين القائد سير بن أبي بكر حاكماً على الأندلس، وفوض له تعيين والياً على كل بلد يفتحه ويكون من لمتونة.

وكان الولاة يخضعون مباشرة لنائب الأمير، ومنح الأمير يوسف سلطات واسعة منها حق التصرف في عزل وتعيين من دونهم من الولاة المحليين، ومن يليهم من رجال السلطة، وكذلك القيام بتحركات عسكرية داخل مناطق نفوذهم، وكان الأمير يوسف وابنه من بعده يراقبون ولاتهم مراقبة شديدة، ويجري تبديلهم وعزلهم إذا أساؤوا، وكانوا يضعون مصالح الرعية في المقام الأول عند تعيين الولاة[2].

هـ - نظام الوزارة:

كان الأمير يوسف بعيداً كل البعد عن اتخاذ الألقاب والألفاظ والاهتمام بالمناصب، فلم يتخذ وزراء بالمعنى المتعارف عليه، ولم يمنح لقب وزير لأي

(1) تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص(263).
(2) دولة المرابطين، ص(165).

شخص إلا أنه اتخذ لنفسه أعواناً يرجع إلى مشورتهم، وكتاباً يشرفون على ديوان الرسائل أو الإنشاء، وكانت لديه هيئة استشارية تشترك فيها طائفة من الفقهاء، والأعيان والكتاب يلازمونه في قصره وتنقلاته يبدون آرائهم في المشاكل المطروحة للبحث وتبقى الكلمة الفاصلة للأمير. أما في الأمور المهمة فكان يجمع زعماء المرابطين وأبناء عمومته من لمتونة للتداول واتخاذ الآراء، وكان الاتصال بالأمير عن طريق الأعوان من السهولة بمكان، وساعد على ذلك ما امتاز به الأمير من زهد في الدنيا وتطلع للآخرة وحب للبساطة، وميل للتواضع.

ويذهب الأمير يوسف في مذهبه إلى أن الشورى معلمة وغير ملزمة وله في ذلك أدلة حيث ذهب بعض المفسرين إلى أن الشورى غير ملزمة مستندين في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 159].

ذهب الإمام الطبري إلى القول: «إذا صح عزمك بتثبيتنا إياك وتسديدنا لك فيما نابك وحزبك من أمر دينك ودنياك، فامض لما أمرناك به، وافق ذلك آراء أصحابك وما أشاروا به عليك أو خالفها، وتوكل فيما تأتي من أمورك على ربك، فثق به في كل ذلك، وارض بقضائه في جميعه دون آراء سائر خلقه ومعونتهم»[1].

ويرى بعض العلماء أن رأي الشورى ولو أنه غير ملزم لكنه ينير الطريق أمام الحاكم[2].

وأضاف العلامة أبو الأعلى المودودي في قضية الشورى هل هي معلمة أو ملزمة بعداً آخر وهو طبيعة المجتمع وما يسوده من أخلاق حيث يقول: «ما وجدت حكماً قاطعاً في هذا الباب في أحاديث الرسول ﷺ، غير أن العلماء قد استنبطوا من عمل الصحابة في عهد الخلافة الراشدة أن رئيس الدولة هو المسؤول الحقيقي عن شؤون الدولة، وعليه أن يسيرها بمشاورة أهل الحل والعقد، ولكنه ليس مقيداً بأن يعمل بما يتفقون عليه كلهم أو أكثرهم من الآراء وبكلمة أخرى أنه يتمتع بحق الاعتراض على آرائهم.

(1) تفسير الطبري، (ج7/ 346).

(2) د. عبد الحميد متولي، مبدأ الشورى في الإسلام، ص(52).

ولكن هذا الرأي في صورته المجملة كثيراً ما يسبب سوء الفهم بالقياس إلى أحوالهم وأوساطهم الحاضرة، ولا ينظرون إلى ذلك الزمان ولا الوسط الذي قد أخذنا هذا الرأي من أعمال الأمة فيه، فما كان أهل الحل والعقد في عهد الخلافة الراشدة منقسمون إلى أحزاب متفرقة، بل كانوا كلما دعوا للمشاورة يأتون المجلس بقلوب ملؤها الإخلاص... ثم يوازن الخليفة بين الحجج الموافقة والمعارضة ويعرض عليهم ما عنده من الدلائل، ويبين رأيه، وكان هذا الرأي في عامة الأحوال رأياً يسلم به أعضاء المجلس كلهم...» ثم قال: «لم نعثر في تاريخ الخلافة الراشدة كله على مثال واحد نرى فيه أهل الحل والعقد قد تفرقت آرائهم حتى آل الأمر إلى عدد الأصوات»[1]، وهذا تفريق جميل بين المجتمع الإسلامي في حاضرنا وبين المجتمع الإسلامي القائم على أسس دولة القرآن التي تربى المسلم على خشية الله فلا ينحرف عن الجادة.

وربما كان يوسف بن تاشفين وأمراء المرابطين محقين في أخذهم بالرأي القائل بأن الشورى معلمة للأمير وليست ملزمة، ولهم أدلة كثيرة للتدليل على هذا المبدأ.

إلا أنني أرى الفائدة الكبرى والاستفادة العظمى في زمننا هذا الأخذ بالرأي القائل بأنها ملزمة، والقائلون بهذا القول لهم أدلتهم منها:

أن الشورى ملزمة للحاكم طالما أنها مؤيدة بالشرع والعقل، فيقول ابن تيمية: «وإذا استشارهم فإن بين له بعضهم ما يجب اتباعه من كتاب أو سنة رسوله أو إجماع المسلمين، فعليه اتباع ذلك، ولا طاعة لأحد في خلاف ذلك، وإن كان عظيماً في الدين والدنيا، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: 59][2].

ولو كانت الشورى غير ملزمة، لكان بإمكان النبي ﷺ أن يجنب الجماعة المسلمة تلك التجربة المريرة التي تعرضت لها في غزوة أحد - لو أنه قضى برأيه في خطة المعركة مستنداً إلى رؤياه... ولم يستشر أصحابه، أو لو أنه رجع عن الرأي

(1) أبو الأعلى المودودي، نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون، (ص273 - 274).
(2) السياسة الشرعية، لابن تيمية، ص(181 - 182).

عندما سنحت له فرصة الرجوع... ولكنه - وهو يقدر النتائج كلها - أنفذ الشورى... ثم يجيء الأمر الإلهي له بالشورى - بعد المعركة - تثبيتاً للمبدأ في مواجهة نتائجه المريرة»[1]، وبهذه الأدلة التي ذكرتها نسترشد بهذا المبدأ في مسيرتنا الحركية والدعوية والتنظيمية التي تسعى لإعادة الإسلام كنظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً، ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً.

و - ديوان الرسائل والمكتبات عند المرابطين:

كان المرابطون يهتمون بديوان الإنشاء، ولذلك حرصوا على أن يتولاه رجال من أشهر الأدباء في تلك الفترة جلهم أندلسيون، واهتم الأمير يوسف بجلب الأدباء والبلغاء والفقهاء لهذه الأعمال، واستفاد من كتاب ملوك الطوائف وتوسع ديوان الرسائل مع امتداد رقعة دولة المرابطين، وانتفع المرابطون انتفاعاً عظيماً بخبرة الأندلسيين أصحاب الحضارة والأدب، وأقبل المغاربة على ثقافة الأندلس ينهلون منها في تواضع المستفيدين، وحدث تنافس بين الكتاب، وحاولوا أن يثبتوا جدارتهم في هذا الفن، وأصبح ديوان الأمير يوسف متألقاً بالحضارة.

وقام ابنه علي بتطوير ديوان الرسائل وجلب له كتاباً في غاية البلاغة ودقة الأسلوب وجمال التعبير، ومما دفع الأمير علياً على تطوير دولته تربيته الرفيعة وذكاءه الوقاد واهتمامه بكتاب ملوك الطوائف وتقريبهم إليه في زمانه، فشعر بحاجته إلى طائفة مثقفة تفهم لغة الوفود، وتجيد فنون الكتابة، ومن أشهر أولئك الكتاب والأدباء والبلغاء، محمد بن سليمان الكلاعي المتوفي عام 508هـ، وصفه ابن خاقان في «القلائد» بقوله: «غرة في جبين الملك، ودرة لا تصلح إلا لذلك السلك، باهت به الأيام، وتاهت في يمينه الأقلام، واشتملت عليه الدول اشتمال الكمام على النور، وانسربت إليه أماني انسراب الماء إلى الغور»[2].

ويقول عنه ابن الصيرفي: «الوزير الكاتب الناظم الناشر، القائم بعمود الكتابة، والحامل للواء البلاغة، والسابق الذي لا يشق غباره، ولا تخمد أبداً أنواره، اجتمع له

(1) سيد قطب في ظلال القرآن، (ج1/ 532).
(2) قلائد العقبان، (ص104).

براعة النشر، وجزالة النظم، رقيق النسيج حصيف المتن»[1].

وكذلك انضم إلى البلاط المرابطي أبو محمد عبد المجيد بن عبد عبدون المتوفى 520هـ، وأبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد الفهري المتوفى في عام 515هـ، وابن أبي الخصال الغافقي المتوفي 540هـ، وأبو زكريا بن محمد بن يوسف الأنصاري الغرناطي المتوفى 570هـ في غرناطة، وأحمد بن أبي جعفر بن محمد بن عطية القضاعي الذي نكبه عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين، وغير هؤلاء كثير من الأدباء والكتاب الذي عملوا في خدمة دولة المرابطين زمن أمير المسلمين علي بن يوسف[2] ولا ننسى أن الوزارة في زمن علي بن يوسف تطورت تطوراً ملحوظاً وأصبح الوزير بمنزلة السمع والبصر واللسان والقلب بالنسبة لأمير المسلمين، وفي الأمثال: نعم الظهير الوزير.

كان الحكم في دولة المرابطين قائم على أسس عسكرية، فأمير المسلمين هو قائد الجيش الأعلى، ومعاونوه هم قواد الجيش، لهذا كان من الطبيعي أن يتسم منصب الوزير بالطابع العسكري كذلك، ولكن لما كان الأمر يتطلب من الوزير أيضاً كتابة الوثائق والمراسيم وصياغتها فقد وجد في دولة المرابطين صنفان من الوزراء:

1 - وزراء عسكريون من قادة الجيش وهم من قرابة السلطان عادة أو من قبائل لمتونة وصنهاجة التي قامت على أكتافهم دولة المرابطين.

2 - وزراء كتاب وهم من الفقهاء.

وكان المغاربة يطلقون كلمة «فقيه» على العالم بالأحكام الشرعية إلا أن أهل المشرق أصبح ذلك المصطلح عندهم يطلق على دارس الفقه عموماً من الطلبة.

وتوسع الأمير علي بن يوسف في اتخاذ الوزراء والمستشارين من الفقهاء وكبار العلماء، وكان من أخص وزرائه الفقيه مالك بن وهيب الإشبيلي الذي شارك في جميع العلوم، ونظم الشعر، وكتب مؤلفات في الفلسفة والتاريخ، وهذا الفقيه هو

(1) المركش، عن ابن الصيرفي في المعجب، (ص164).
(2) انظر: تاريخ المغرب والأندلس، للدكتور حمدي عبد المنعم، (ص270، 271).

الذي أشار على سلطان المرابطين علي بن يوسف بقتل محمد بن تومرت زعيم دولة الموحدين فيما بعد، حيث تفرس فيه حدة نفسه وذكاء خاطره، واتساع عبارته، فأشار على أمير المسلمين بقتله أو اعتقاله، قبل أن يستفحل خطره، لأنه رجل مفسد ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه، غير أن علي بن يوسف توقف في قتله واعتقاله، وأبى ذلك عليه دينه، لعدم ثبوت التهمة عليه، وقد صح ما تفرسه مالك بن وهيب، إذ أنه على يد هذا المدعي المهدية الكذاب ابن تومرت قامت دولة الموحدين التي قضت على دولة المرابطين في المغرب والأندلس[1].

(1) انظر: تاريخ المغرب والأندلس، للدكتور حمدي عبد المنعم، (ص368).

المبحث الثاني

النظام القضائي في دولة المرابطين

تمهيد:

للقضاء مكانة عظيمة ومنزلة شريفة، وفاصل بين الناس في خصوماتهم وحاسم للتداعي وقاطع للتنازع، وكان العرب في جاهليتهم يعرفون منزلة القضاء ويختارون له أهله ويطلقون عليهم الحكام، واهتم المسلمون بهذا الأمر ومارسه رسول الله ﷺ في زمانه، وسار الخلفاء من بعده على دربه، وأصبح القضاء بعد رسول الله ﷺ في عداد الوظائف الداخلة تحت الخلافة، وتطوَّر القضاء مع تطوُّر دولة الإسلام فكان الخليفة يتخذ قاضياً في حاضرة الخلافة وقضاة آخرين في الولايات والأمصار.

كان القضاء في الأمصار أول الأمر مضافاً إلى الولاة حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب فجعله مستقلاً عن نظر الوالي، عين له من يتفرد بالنظر فيه ومع استقلال القضاء عن نظر الوالي، فإن تقليد القضاء في الولايات كان يتم في الغالب عن طريق الولاة بتفويض الخليفة لهم، أما في العاصمة فكان الخليفة هو الذي يعين القاضي إلى أن جاء الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور الذي انحرف بالقضاء نحو مركزية الدولة، وأخضع المؤسسات القضائية لرقابته المستمرة، وجعل تقليد القضاة على قضاء الأمصار من قبله، وتابعه على ذلك خلفاء بني العباس، إلى أن استحدث منصب قاضي القضاة في فترة تالية، فتولى قاضي القضاة النظر في مؤهلات المرشحين للقضاء ومراقبة الكفاءة المهنية للقضاة في عاصمة الخلافة وخارجها[1] واهتمت كل الدول التابعة للخلافة بتطوير نظامها القضائي وخصوصاً المرابطين الذين حرصوا على إقامة العدل ونشره في ربوع بلادهم، فكان لمنصب القضاة أهمية كبيرة، ولذلك حرص أمراء المرابطين على تعيين القضاة ممن برزوا في العلم والفقه وتميزوا بالمقدرة على تولي هذه المناصب في دولتهم دون الاستناد على العصبية القبلية، حتى أصبح أكثر

---

(1) تاريخ الحضارة العربية والإسلامية، د. محمد بطاينة، ص(79).

القضاة من غير قبيلة صنهاجة وهي سياسة حكيمة اتبعها الأمير يوسف رغبة في تحقيق العدالة وتطبيق تعاليم الإسلام.

وقد منحهم رتبة عالية في الدولة حتى كثرت أموالهم، واتسعت مكاسبهم، وكانوا يستمدّون نفوذهم من سلطة الدولة نفسها، يحكمون وفق المذهب المالكي، ويقوم بتنفيذ أحكامهم الولاة والحكام المحليين، وقد شارك القضاة في معارك الجهاد في الأندلس، واستشهد بعضهم في معركة الزلاقة منهم القاضي عبد الملك المصمودي قاضي مراكش[1].

وكانت السلطة القضائية تتمتع باستقلال كبير عن السلطة التنفيذية، وكان تعيين القاضي يصدر بمرسوم عن أمير المسلمين، وكذلك عزله، وكان لأهل البلدان التابعة لدولة المرابطين حق التشريح لمن يرونه مناسباً لمنصب القضاء في بلدهم.

وإذا أراد أمير المسلمين عزل قاضٍ في بلد معين فعليه أن يوضح الأسباب لأهل ذلك البلد.

أ - منصب قاضي الجماعة في الأندلس:

يعتبر منصب قاضي الجماعة من أرفع المناصب القضائية في الأندلس، كان صاحبه يشرف على القضاء في جميع أنحاء الأندلس، ومن المرجح أن هذا المنصب الخطير كان لا يتولاه إلا كل من يثبت كفاءة عالية في أمور القضاء، وكان قاضي الجماعة في الأندلس يتمتع بسلطات واسعة، ومنهم أبو القاسم أحمد بن محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز التغلبي الذي وجهه الأمير يوسف بن تاشفين إلى اتباع الحق في الأحكام دون أن يعرف في الله لومة لائم، فكتب له: «ولا تُبالِ برغم راغم وتشفق من ملامة لائم، فآس بين الناس في عدلك ومجلسك حتى لا يطمع قوي في حيفك ولا ييأس ضعيف في عدلك، ولا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له، ولا أضعف من القوي حتى تأخذ الحق منه...»[2].

ومن أشهر من تولى منصب قضاء الجماعة في الأندلس في عصر علي بن

(1) دولة المرابطين، ص(166).

(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، (ج2/ 106) ابن بسام الشنتريني.

يوسف أبو الوليد محمد بن محمد بن أحمد بن رشد المالكي وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف إبراهيم التجيبي المعروف بابن الحاج[1].

ب - قاضي الجماعة في المغرب:

كانت رئاسة القضاء في المغرب في زمن دولة المرابطين تسند إلى قاضي الجماعة بمراكش، الذي كان يُسمى بقاضي قضاة المغرب أو بقاضي الحضرة، وكان على هذا يتولى هذا المنصب أن يكون من المقربين إلى قلب أمير المسلمين يستفتيه في كل ما يعرض له شؤون، ومن أشهر من تولى هذا المنصب: أبو محمد عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن قاسم بن منصور اللخمي، وأبو الحسن علي بن عبد الرحمٰن المعروف بابن أبي حقون، وأبو سعيد خلوف بن خلف الله.

لقد قطع المرابطون في تنظيم القضاء شوطاً أبعد من مجرد تقسيم قضاء الأندلس والمغرب وجعل زعامة القضاء في كل منهما لقاضي القضاة، أحدهما يختص بالأندلس والآخر بالمغرب، بل إن المرابطين اتخذوا فقيهاً له السلطة العليا على قضاء المغرب والأندلس على السواء ومن المرجح أن زعامة القضاء في العدوتين كانت أحياناً من نصيب قاضي مراكش أو قاضي سبتة أو طنجة، وأحياناً أخرى لقاضي الجماعة بقرطبة[2].

جـ - مجلس الشورى القضائي:

كان للقاضي في صحبته مجموعة من فقهاء البلد التي تولى قضاءها ليشاورهم قبل أن يصدر الأحكام وكان قاضي المدينة يتولى اختيار هؤلاء الفقهاء من أهل مدينته، ممن يعرفون بالورع والتقوى والتبحر في الفقه والعلوم الدينية، ويحدد ابن عبدون هؤلاء الفقهاء المشاورين بأربعة: اثنين يشتركان في مجلس القاضي، واثنين يقعدان في المسجد الجامع[3].

د - القضاء العسكري:

عرفت دولة المرابطين ما يمكن تسميته بالقضاء العسكري، وكان يمارسه قضاة

---

(1) تاريخ المرابطين، ص(287).
(2) تاريخ المغرب والأندلس، ص(288).
(3) المصدر السابق، ص(289).

مختصون بحل مشاكل الجند في مواضع خاصة بالمعسكرات، كما كانوا يشتركون في القتال لحث الجند وتشجيعهم على القتال، وكان هؤلاء القضاة يسمون بقضاة المحلة أو قضاة الجند، وممن ذكرهم التاريخ في من تولوا منصب القضاء العكسري: عبد الرحيم بن إسماعيل الذي عين قاضياً في معسكر أمير المسلمين علي بن يوسف بمدينة سلا[1].

هـ - قضاء الذميين في دولة المرابطين:

أما بالنسبة لأهل الذمة في الأندلس، فقد كان رجال الدين النصارى واليهود يتولون القضاء لهم، دون أن يتدخل فيهم قضاة المسلمين، أجاز الفقهاء تقليد الذمي القضاء لأهل الذمة، وفي الأندلس خصص المسلمون لأهل الذمة قاضياً يعرف بقاضي النصارى أو قاضي العجم، أما إذا كانت الخصومة بين ذمي ومسلم فإن قضاة المسلمين يتولون الفصل بينهما، وفي هذا الصدد يشير «أشباخ» إلى أن النصارى كانوا «يتمتعون بحرية الشعائر ويحتفظون ببعض القوانين القوطية ولهم أساقفتهم وقضاتهم»[2].

و - شجون وأحزان وآلام وآمال:

إن السعي لإقامة دولة الإسلام في أي بقعة من بقاع العالم يحتاج للطلائع التي تسعى لهذا الهدف العظيم فقه الأخذ بأسباب التمكين في كافة الأصعدة ومختلف الميادين.

وإذا نظرنا في النظم القضائية التي لا بد منها في أي دولة دينية أو علمانية وسألنا أنفسنا ما حظ الحركات الإسلامية من هذا الفقه؟ وما هي الخطط التي وضعت لإيجاد هذه النظم القضائية الشرعية التي لا بد منها في أسلمة الدولة؟ وما هي الوسائل التي اتخذتها؟ وهل بدأنا في إيجاد الكوادر التي تجمع فقه الشريعة والنظم المعاصرة بحيث تستطيع أن تقدم نموذجاً حياً لقدرة الإسلام على مواكبة التطور والتقدم بمفهومه الصحيح المنبثق من عقيدة الأمة ودينها وشريعتها لكانت الإجابة محزنة.

إن السعي لتحقيق هذه الجزئية من الجزئيات المطلوبة في إقامة الدول يحتاج من

(1) تاريخ المغرب والأندلس، ص(291).
(2) انظر: تاريخ الأندلس، لأشباخ، ص(82).

العاملين في هذه الميادين إلى جهد مضنٍ وسهر متواصل، وتصميم أكيد على الوصول للهدف، وسعي دؤوب ممزوج بالدموع والعرق والدماء، وهمم لا تعرف الوهن، وعزائم تنخر في هياكل الجاهلية ليدخل من خلال تلك الثقوب نور الإيمان وهدي القرآن لينتشر رويداً رويداً زاحفاً على الظلام والضلال والظلم والكفران، وإعادة دولة الإسلام في أثوابها الزاهية، وتيجانها الناصعة، وعدلها المنتظر، وآفاقها الواسعة، ووظائفها المتعددة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصرة المستضعفين ومقارعة الظالمين، وفتح أبواب الجهاد وشراء سلعة الجنة بالمهج والأنفس والأرواح ثمناً لها. إن أصحاب تلك الأهداف السامية والنبيلة لا بد لهم من أن يتميزوا في حياتهم عن غيرهم فإن الآمال العظيمة لا يصل إليها إلا أصحاب النفوس الكبيرة.

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت من مرادها الأجسام

إن تحديات الحركات الإسلامية كثيرة جداً فعليها أن تستعين بخالقها على تحقيق أهدافها وعليها أن تكثر العمل وتقلل من الجدل، وتهتم بالرواحل وتترك المثبطين، وتصعد بأبنائها على كافة المجالات والأصعدة وتهتم بتربيتهم وتزكيتهم وتفجير طاقاتهم وتوجيهها حتى تسد الثغرات المتعددة، وعليها أن تحرص على أوقات أبنائها وتشغلهم بالنافع المفيد للأمة ولهم.

إنَّ تحريك الشعوب الإسلامية نحو التغيير لإقامة شرع الله مقيد بسنن الله في المجتمعات والدول والأشخاص، وسنن الله لا تجامل ولا ترحم ولا تتغير ولا تتبدل، فعلينا أن نفقه سنن الله لنحسن التعامل معها ونأخذ بها في خطواتنا لإقامة دولة الإسلام ونشر شريعة الرحمٰن.

المبحث الثالث

النظم العسكرية

أولاً: صفات المجاهدين في سبيل الله:

تمهيد:

إن الجهاد في سبيل الله عظيم الكلفة والمشقة على النفس البشرية قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾ [البقرة: 216].

ولذلك لا يستطيع أن يقوم بالجهاد الإسلامي على أصوله الصحيحة إلا من رزقه الله صفات تجعله أهلاً للقيام بهذه العبادة الكريمة.

والأصل العظيم الذي تنبثق منه كل صفات المجاهدين سواء كانوا قادة أو جنوداً، أو صفات الجيش كله هو الإيمان بالله العلي العظيم الذي بقوته تقوى صفات المجاهدين وبضعفه تضعف تلك الصفات الرفيعة في القادة والأفراد والجيش على حد سواء، ولذا قال ابن تيمية رحمه الله: «وإذا كان أولياء الله هم المؤمنين المتقين فبحسب إيمان العبد وتقواه ولايته لله تعالى، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى، وكان أكمل ولاية لله، فالناس متفاضلون في ولاية الله عز وجل بسبب تفاضلهم في الإيمان والتقوى»[1].

والذي يكون إيمانه أكمل يحقق عبوديته لله أكثر، فيكون وقته كله عبادة وصبراً وعلماً وتذكراً وتقوى وإحساناً وإخلاصاً واعتزازاً بدينه[2] قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر: 9 - 12].

---

(1) الفتاوى (ج11/ 175).

(2) انظر: الجهاد في سبيل الله، د. عبد الله القادري، (ج2/ 5).

إن زعماء المرابطين في تاريخهم المجيد حرصوا على تربية شعبهم المجاهد على صفات المجاهدين سواء على مستوى الأفراد أو القادة أو الجيش أو الشعب.

أ - صفات القائد العسكري عند المرابطين:

إذا نظرنا في سيرة قادة المجاهدين في دولة المرابطين نجد أن خيار قادتهم تميزوا بصفات أهَّلتهم لقيادة الجيوش وتحقيق النصر وإلحاق الهزائم بالأعداء ومن أشهر أولئك القادة الذين تميزوا بصفاتهم القيادية أبو بكر بن عمر، ويحيى بن عمر، ويوسف بن تاشفين، وأبو محمد مزدلي، وسير بن أبي بكر، وأبو عبد الله محمد ابن الحاج، وداود بن عائشة، وعبد الله بن فاطمة وغيرهم كثير.

نلاحظ أنهم تميزوا بأمور أهمها:

1 - الإكثار من طاعة الله وإعداد النفس لتحمل المشاق:

حيث تربوا على حسن صلتهم بربهم الذي يمدهم بالعون بقدر ما يحققون له العبودية فكان لهم حظ من القرآن والصيام والقيام وحسن الصلة والإنفاق في سبيل الله، وكان لتربية عبد الله بن ياسين لهم في رباطه أكثر كبير لازمهم على طول حياتهم، فكان في مرحلة التكوين يربي أتباعه على الذكر والتوكل على الله والصبر على الأذية في سبيل الله، وكان يعلمهم أساليب إتعاب النفس في ذات الله حتى تستطيع أن تتحمل المشاق في سبيله، وكان منهجه في ترسيخ هذه المعاني في نفوس أتباعه القرآن الكريم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾ [المزمل: 1 - 10].

ويقول سيد قطب رحمه الله في «ظلاله» في ترسيخ هذه المعاني في نفوس الدعاة: «إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً ولكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً، فأما الكبير الذي يحمل العبء فماله والنوم، وماله والراحة، وماله والفراش الدافىء، والعيش الهادىء، والمتاع المريح، ولقد عرف رسول الله ﷺ حقيقة الأمير وقدره،

فقال لخديجة رضي الله عنها وهي تدعوه أن يطمئن وينام: «**مضى عهد النوم يا خديجة**» أجل مضى عهد النوم وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الطويل الشاق»[1].

لقد كان قادة المرابطين في تربيتهم الرشيدة جادين بعيدين عن الهزل واللهو واللعب وتميز فيهم أبو بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين، فكان لهما السبق على أتباعهم في كل مجال من المجالات التي تعتبر من ضرورات القائد الناجح.

2 – القدوة الحسنة للجنود:

حيث نجد أن قادة المرابطين يقودون المعارك بأنفسهم فقتل عبد الله بن ياسين في ساحات الوغى، ويحيى بن عمر كذلك وأبو بكر بن عمر في جهاده في الصحراء الكبرى. كما كان يوسف بن تاشفين يقود الحرس الخاص الذي أعده لانتزاع النصر من الأعداء في الساعات الحرجة، ويندفع بجواده في ميادين الجهاد عندما يشتد وطيس المعركة. وضربوا أمثلة رائعة في إيمانهم وعملهم الصالح وشجاعتهم وكرمهم الفياض وحزمهم وإيثارهم وإقدامهم.

3 – حرصوا على تزكية وتطهير جنودهم والارتقاء بهم في طاعة الله:

إن بُعد الجنود عن التعليم والتربية والتطهير يكون سبباً في قسوة قلوبهم وانغماسهم في الآثام والذنوب ومن ثم الهزيمة:

قال تعالى:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: 164].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: 2].

يقول سيد قطب رحمه الله: «ويزكيهم ويطهرهم ويرفعهم وينقيهم يطهر قلوبهم وتصوراتهم ومشاعرهم، يطهر بيوتهم وأعراضهم وصلاتهم، ويطهر حياتهم ومجتمعهم وأنظمتهم، ويطهرهم من أرجاس الشرك والوثنية والخرافة والأسطورة وما

(1) انظر: في ظلال القرآن (ج6/ 3744).

تبثه في الحياة من مراسم وشعائر وعادات وتقاليد هابطة بالإنسان وبمعنى إنسانيته، ويطهرهم من دنس الحياة الجاهلية وما تلوّث به المشاعر والشعائر والتقاليد والقيم والمفاهيم»[1].

4 - الخبرة بأمور الحروب والقوة فيها:

وظهر ذلك في قادة المرابطين في جهادهم من أجل توحيد المغرب الأقصى كله والقضاء على دولة برغواطة الملحدة، وما خاضوه من حروب ومعارك ظهرت فيها خبرتهم الحربية ومقدرتهم على تنفيذ أساليب الكر والفر، وظهرت خبرة القائد الأعلى يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة التي أكسبت أركان الحرب خبرات عميقة ساعدتهم في جهادهم من أجل ضم الأندلس لدولتهم الفتية تحت راية الإسلام بمنهجه السني القويم، والقضاء على الخطر النصراني في الأندلس.

وفي القرآن الكريم نجد إشارة لطيفة تبين صفات القائد العسكرية وهما: العلم والقوة كما قال تعالى:.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 247].

وقد ظهر علمه وخبرته في اختبار جنده ومعرفة الصالح منهم للجهاد وغير الصالح، وبرزت قوته في صموده ومصابرته ونجاحه في جهاده.

قال سيد قطب رحمه الله:

«وفي ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة، وكلها واضحة في قيادة طالوت، تبرز فيها خبرته بالنفوس وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة وعدم التفاته للتجربة الأولى، ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة، وفصله للذين ضعفوا وتركهم وراءه ثم - وهذا هو الأهم - عدم تخاذله وقد تضاءل جنوده تجربة بعد تجربة، ولم يثبت معه في النهاية إلا تلك الفئة المختارة، فخاض بها المعركة ثقة منه بقوة الإيمان الخالص ووعد الصادقين المؤمنين»[2].

---

(1) في ظلال القرآن (ج1/ 507).

(2) دولة المرابطين، ص(75).

5 – البعد عن طلب القيادة وابتغاء الرئاسة:

وظهر لي هذا المعنى في شخصية الأمير المجاهد الزاهد أبي بكر بن عمر فعندما لمس من ابن عمه مقدرة على القيادة أسند الأمر إليه، ودخل متوغلاً في الصحراء الكبرى من أجل الدعوة والجهاد حتى أكرمه الله بالشهادة، وكان أمراء المرابطين يرون الإمارة قربة وعبادة يتقربون بها إلى الله لنصر دينه وتحقيق مصالح عباده وليست مغنماً من جاه أو منصب أو مال.

6 – إسناد الأمور إلى أهلها:

وهذه الصفة ظهرت لي في سيرة يوسف بن تاشفين في تعيينه للولاة والقادة والفقهاء، وما كان ليمتنع عن عزل من قصر في عمله ويعين من هو أفضل منه.

7 – تربية الجندي على التسليم المطلق لله لا لشخص القائد:

وكان أمراء المرابطين يضربون أروع الأمثلة في زرع هذه المعاني في نفوس المجاهدين فهذا أمير المسلمين رفع يديه نحو السماء مناجياً المولى ﷻ : «اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا إصلاحاً للمسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نجوزه»[1].

وفي وسط معركة الزلاقة وهو يبث الحماس في نفوس المجاهدين: «يا معشر المسلمين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة»[2] وهكذا القائد المسلم هو الذي يربي جنوده بالمواقف على تحقيق العبودية الخالصة لله.

ولهذا لما قتل عبد الله بن ياسين لم يتأثر المرابطون وقتل يحيى بن عمر ومن بعده أبو بكر بن عمر وما زادهم ذلك إلا إيمانا وتسليماً، وهذا يدل على حسن تربيتهم للمجاهدين وتعلقهم وتسليمهم لله لا للأشخاص، أما تربية اليوم في جيوش المسلمين شبيهة بالفرعونية حيث يربي القائد جنوده على طاعته المطلقة في الخير والشر كما يربيهم على الخضوع الكامل لشخصه.

ووصف الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله – هذه التربية فقال: «إن الذي يدرس

---

(1) دولة المرابطين، ص(90).

(2) المرجع السابق نفسه.

المجتمعات الفاسدة ويتغلغل في بحث عللها، والذي يتتبع أعمال الأدعياء وطلاب الزعامة، ويستقصي وسائلهم الملتوية في تسخير الجماهير للوصول إلى القمة، والذي يلحظ النهضات الكبرى وكيف يدركها الفشل فجأة لأنهم أصيبوا برجال يحبون الظهور، فلا يرحبون بالنصر إلا إذا جاء عن طريقهم وحدهم، أما إذا جاء غيرهم فهو البلاء المبين»[1].

وقال سعد جمعة: «والفرق بين الإسلام والنظم المعاصرة أن الولاء في الإسلام هو لله وحده، بينما الولاء في النظم الأخرى المنعوتة بالتقدمية، هو للطاغية، أو الدكتاتور أو الحزب الحاكم أو الجيش العقائدي أو الإيديولوجيَّة المتسلطة، ولذا فهو ولاء إكراه وضغط فكري وقهر بوليسي، لا ولاء الخير والمحبة والمودة والتقوى والأخوة»[2].

وكم نحن محتاجون إلى منهج الإسلام الصحيح في غرس الربانية والتسليم المطلق لله لا للأشخاص.

8 - الحرص على قاعدة الشورى:

كان لأمير المسلمين في دولة المرابطين ونائبه مجلسٌ حربيٌّ يضم قواد الفرق العسكرية المختلفة لدراسة الخطط الحربية، وتلقي الأوامر والتعليمات من القائد الأعلى والتشاور في أمور الجهاد والبلاد والعباد، واتصف قادة المرابطين بحرصهم على إقامة مبدأ الشورى فيما بينهم.

فكان قرار الجهاد ضد النصارى في الأندلس بعد شورى شارك فيها الشيوخ والقادة والعلماء والفقهاء، وكان قرار ضم ممالك الطوائف بعد شورى كذلك واشتهر الأمير يوسف بمشاورة ذي الرأي من علماء الشريعة الإسلامية وذوي الخبرة فيما يعرض له من أمور.

9 - الحرص على تحقيق الأهداف والضبط الإداري وقوة التأثير:

ظهرت هذه الصفات في شخصية يوسف بن تاشفين الذي أظهر مهارة إدارية عندما فتح مدينة سجلماسة واستطاع أن يحقق أهداف المرابطين بعد جهاد دام ربع قرن

(1) الإسلام والاستبداد السياسي، ص(35).
(2) الله أو الدمار، ص(181).

جنى بعدها المرابطون ثمرة أتعابهم وبسطوا سيطرتهم على المغرب الأقصى، ونشر الأمن في ربوعه، واستطاع يوسف بحسن سيرته وعدله أن يؤثر بقوة الحق الذي التزمه على قبائل المصامدة وزناتة وغمارة وغيرها.

10 - الشجاعة والكرم:

وظهرت هاتان الصفتان في قادة المرابطين في جهادهم في الأندلس فبعد معركة الزلاقة عفَّ الأمير يوسف وجنوده عن الغنائم وتركوها لملوك الطوائف مع كونهم بذلوا من الدماء والنفوس في تلك المعركة ما لا يعلمه إلا الله فدل فعلهم ذلك على شجاعتهم وكرمهم.

11 - التصرف الحكيم السريع أمام المفاجآت:

وظهرت لي هذه الصفة عندما تدخل الحماديون من الحدود الشرقية واعتدوا على دولة المرابطين من أطرافها، جرد المرابطون لهم جيشاً وردوهم إلى حدودهم وعقدوا معاهدة أمن وسلام، وعندما أخطأ والي تلمسان المرابطي وشن هجوماً على بني حماد بدون إذن من القيادة العليا عزل ذلك القائد وعين مكانه من هو أفضل منه وتراضوا مع بني حماد، وعندما تأكد الأمير يوسف من خيانة ملوك الطوائف أسر بعضهم وقتل بعضهم، وضرب الحصار على ممالكهم حتى أسقطها جميعاً، وساعده على تحقيق تلك الأهداف قادة عظام اتصفوا بصفات عظيمة انعكست على جنود المرابطين.

هذه بعض الصفات التي حرص المرابطون على غرسها في قياداتهم وزعمائهم فكانت خيراً وبركة على تلك الدولة السنية الفتية.

ب - المنهج التربوي لجيش المرابطين:

اهتم المرابطون بتربية جنودهم تربية جهادية اهتموا بجميع جوانبها الروحية والنفسية والفكرية والجسدية، وقد تميزت تربيتهم الروحية بربط المجاهد بالجنة والاشتياق إليها، فشهدت المعارك التي خاضوها ضد أعدائهم على حبهم للموت كحب خصومهم النصارى للحياة.

وغرس علماء المرابطين في نفوس جنودهم عقيدة الإيمان بالقدر، فأصبح الفارس منهم ينطلق كالسهم في صفوف الأعداء يضرب ذات اليمين وذات الشمال لا

يخشى إلا الله تعالى مؤمناً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدل على تعميق هذا المفهوم في نفوس المجاهدين.

قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: 42].

وقال تعالى:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 51].

وقال ﷺ: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد...**»[1].

وكانت وسائل المرابطين في تقوية الجانب الروحي في جنودهم وشعبهم المقاتل تعتمد على إحياء شعيرة الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وتلاوة القرآن، والذكر. وأما وسائلهم في التربية النفسية فتعتمد على جهود العلماء والفقهاء الذين يقومون بتزكيتهم وإيضاح حقيقة النفس والكون والحياة وغرض الإنسان وهدفه في هذه الدنيا.

وكانوا يرون أن أهم أسباب تربية النفوس أن تستعد دائماً للجهاد وأن تتربى على خشونة العيش والطعام والشراب وقلة النوم لتنمية فضيلة الصبر في نفوسهم.

ج - أبرز الجوانب التربوية في جيش المرابطين:

1 - الأخوة الإسلامية:

كانت من أسباب قوة الجيش المرابطي سريان روح الأخوة بين جميع فصائل الجيش، وامتلأت قلوبهم ونفوسهم بهذا المعنى السامي الذي كان سبباً في تذويب النعرات الإقليمية والعرقية، وجيوشهم تتكون من الزنوج، ومن قبائل صنهاجة المتفرقة ومن العرب ومن مسلمي الإسبان وكل هذه الفصائل المتعددة والمتنوعة كونت أمة واحدة.

---

(1) البخاري رقم (3036).

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: 10]. وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: 103].

لقد تحلى جيش المرابطين بهذه الصفة الربانية العظيمة فقوت رابطة المجاهدين وجعلتهم صفاً واحداً كالبنيان المرصوص في مواجهة الأعداء.

2 - التواصي بالحق والتواصي بالصبر:

فعندما أصيب عبد الله بن ياسين بجراح بالغة وحمل على أثرها إلى معسكره جمع رؤساء وشيوخ المرابطين وحثهم على الثبات في القتال، وحذرهم من عواقب التفرقة والتحاسد في طلب الرئاسة وما لبث أن فارق الحياة[1].

وهكذا جند الله المجاهدون لا يتباطؤون في مناصحة بعضهم بعضاً لعلمهم بأن في هذا التباطؤ هلاكهم جميعاً الذي وصفه لهم الرسول ﷺ في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه فقال: «**مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً**»[2].

إن مفهوم الجندية الإسلامية يترعرع في بيئات التناصح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

3 - إصلاح ذات البين:

حرص المرابطون على نبذ الشقاق والقضاء على الخلاف وعلى رأب الصدع وإصلاح ذات البين؛ لعلمهم أن فساد ذات البين يقضي على جند الجهاد أكثر مما يقضي عليهم عدوهم الخارجي مهما قويت شوكته وكثر جنده، فاتخذوا أسلوب الحكمة واللين والرفق من أجل تحقيق هذا الهدف المنشود، وإذا خرجت فئة تستمرئ الشقاق أو تعمل على إيجاده جردوا لها الجيوش وأخضعوها بالقوة، وهذا ما قام به الأمير أبو بكر بن عمر عندما تمردت بعض قبائل الصحراء على مبادئ

(1) تاريخ المغرب والأندلس، ص(44).

(2) البخاري رقم (2493)، فتح الباري (ج5/ 132).

المرابطين واشتبكوا مع بعض القبائل الأخرى في قتال، فخرج إليهم بجيشه الكثيف وأصلح ذات البين مستعملاً في ذلك القوة، ومن أجل الضرورة وإصلاح ذات البين أذن النبي ﷺ لمن أراد أن يستعمل الكذب الذي لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً ولا سيما إذا كان من باب التورية والتعريض كما في حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً**»[1].

وجعل النبي ﷺ إصلاح ذات البين أفضل من الصلاة والصيام والصدقة وحذر النبي ﷺ من فساد ذات البين، قال رسول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بأفضل درجة من الصيام والصلاة والصدقة؟**»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال «**إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين الحالقة**»[2].

4 - نصر الحق والثبات عليه:

لما أرسل فقهاء سجلماسة ودرعة إلى الفقيه ابن ياسين، يرغبونه في الوصول إليهم ليخلص بلادهم مما تعانيه من الحكام الطغاة الظلمة زناتة المغراويين وأميرهم مسعود بن وانودين، فجمع ابن ياسين شيوخ قومه وقرأ عليهم رسالة فقهاء سجلماسة فأشاروا عليه بمد يد المعونة لهم، وقالوا له: «أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا فسر بنا على بركة الله تعالى»[3].

ولما طلب ملوك الطوائف العون من المرابطين لنصرتهم على النصارى لبوا نداء الحق. لقد كان جيش المرابطين حريصاً على نصرة الحق وإحقاقه والقتال عليه.

لقد حرص المرابطون على أن يشملهم قول رسول الله ﷺ: «**لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك**»[4]. وقوله ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة**»[5].

---

(1) البخاري رقم (2692)، فتح الباري (ج5/ 299).
(2) رواة الترمذي (ج/ 663).
(3) تاريخ المغرب والأندلس، ص(42).
(4) البخاري رقم (3641)، فتح الباري (ج6/ 632).
(5) مسلم (ج3/ 1524).

إن صفة نصر الحق والثبات عليه والقتال عليه ليست دعوى تقال أو شعار يرفع على مستوى الجماعات أو الدول أو الطوائف وإنما حقيقة لها دلالتها الواقعية في حياة الناس. وأي جماعة أو دولة تفقد صفة الفقه في الدين ونصر الحق أو إحداهما فليست أهلاً لأن تكون هي الطائفة المنصورة.

وأي خلل يقع في أي جماعة فلا بد أن يكون مصدره فقد إحدى الصفتين أو فقدهما معاً أو ضعف في إحداهما أو فيهما معاً[1].

إن دولة المرابطين في جيلها الريادي حققت صفة الفقه في الدين متمثلاً في فقهائها العظام فاستحقت أن تكون من الطائفة المنصورة التي حالفها نصر الله وتوفيقه وعندما ضعفت تلك الصفات آل أمرها إلى طائفة مغلوبة، بل زالت من الوجود.

د - عناصر جيوش المرابطين:

1 - الملثمون أو المرابطون: كانوا هم النواة الأولى التي تكون منها الجيش المرابطي، وقد قامت الدولة على أكتافهم، وقد اشتهر هؤلاء الملثمون بقوة بأسهم في الحرب، وكانوا أثبت من الجبال الرواسي في المعارك، ومهما تفوق عليهم عدوهم في العدد فلا يتقهقرون، ولقد حققوا انتصارات رائعة في معاركهم في المغرب الأقصى أو في معارك الجهاد في الأندلس.

2 - العرب: وشكلوا فرقة أصبحت من أهم فرق الجيش المرابطي وشاركوا في معارك الأندلس، وتنتمي بعض العناصر العربية إلى عرب الأندلس الذين استقروا في المغرب في عصر الأدارسة، ويرجع البعض الآخر إلى قبائل بني هلال التي انخرطت في سلك جيش المرابطين، وشاركوا في معارك الجهاد ومن أشهر تلك المعارك معركة كنسويجرة يقول ابن الكردبوس: «فجر ابن تاشفين عسكراً جراراً من مرابطين وعرب وأندلس الشرق والغرب، وقدم عليهم قائده محمد بن الحاج، فالتقوا بكنثرة فكانت بينهم جولات وحملات إلى أن زلزل الله أقدام المشركين، وولوا مدبرين...»[2].

كما شاركوا في معركة إقليش فيقول ابن القطان: «واستشهد في هذه الوقيعة -

(1) الجهاد في سبيل الله، (ج2/ 95).

(2) الاكتفاء، ص(107 - 108).

أي إقليش - الإمام الجزولي، وكان رجل صدق، وجماعة من الأعيان والعربان. .»[1].

3 - **الحرس الخاص**: كانت قوى الحرس الخاص تتألف من أشجع الجند من مختلف الولايات، ويشترط في قبولهم أن يكونوا من ذوي القوام الحسن والشجاعة الفائقة والقوة والبراعة، يقول أشباخ: «جمع يوسف بن تاشفين من تجار الرقيق من إقليم غانا، عدداً كبيراً من العبيد واختار منهم أمرهم وزودهم بالسلاح والخيل ودربهم على جميع فنون القتال، وأنشأ من حرسه الخاص الأسود من ألفي رجل، وأنشأ على هذا النمط حرساً خاصاً من الأندلسيين يتألف من فتيان من النصارى المعاهدين، وكان يوسف يَحْبُوهُم بعطفه وصلاته وينعم على من امتاز منهم بالإخلاص والشجاعة بمختلف الهبات من الخيل والثياب والسلاح والعبيد»[2].

وبين الدكتور سعدون عباس نصر الله أن النصارى في جيش المرابطين اعتنقوا الإسلام[3]، وأصبح الحرس الخاص ركناً أساسياً من أركان الجيش المرابطي، ولا سيما أن علي بن يوسف ضم إليه الكثير من أسرى الحروب وشارك هذا الخاص في حراسة معاقل المغرب، بل حتى في حروب الدولة ضد الموحدين[4].

4 - **الحشم**: كانت فرق الحشم أهم فرق الجيش المرابطي وكانت تتكون من زناتة والمصامدة وكانت هذه الفرق تتقدم عادة الجيوش المرابطية في القتال[5].

هـ - فنون القتال:

لما تولى الأمير يوسف مقاليد حكم المرابطين عمد إلى إصلاح نظام تسليح الجيش وطريقة إعداده للقتال ففي البدء كانت أسلحتهم يدوية ويعتمدون على الإبل، وهذه الأسلحة تصلح لحرب الصحراء، أما حرب المدن والحصون فإنها تتطلب وسائل وأسلحة تتلائم مع الوضع الجديد الناشئ عن حرب الحصار؛ ولهذا ابتكر

(1) نظم الجمان، ص(9 - 10)، **انظر: الثغر الأعلى، الأندلس، ص(129)**.
(2) تاريخ الأندلس، لأشباخ، ص(479 - 480).
(3) دولة المرابطين، ص(170).
(4) و(5) تاريخ المغرب في عصر المرابطين، ص(298).

الأمير يوسف الخطة العسكرية المعروفة بالتقري، وخطة التقري تعتمد على توجيه الجيوش إلى بلاد معينة للقتال مع جيوشها في معارك فاصلة لا لحصار المدن[1].

وسلّح الجيش بكل أنواع الأسلحة المعروفة من مغربية وأندلسية ونصرانية وكان سلاح كل فرقة من الجيش يتناسب مع تركيبها ووضعها القتالي فمشاة الصف الأول يتسلحون بالقنا الطوال وبدروق اللمط.

وكان للأمير يوسف الفضل في تنظيم جيش المرابطين ومعرفة الرجال ومواهبهم الفذة الذين أعادوا إلى الأذهان تاريخ الفتوحات الأولى لأمة الإسلام، لقد كانت حركة المرابطين مقنعة للعالم في زمانها بأن الإسلام قادر في كل زمان ومكان على إنجاب القادة الأفذاذ أمثال سير بن أبي بكر، وداود بن عائشة، وابن فاطمة، وابن ميمون ومزدلي وغيرهم، وعلى رأسهم الجميع القائد الرباني الذي أنقذ الله به الإسلام في الأندلس والمغرب يوسف بن تاشفين.

كان الأمير يوسف أثناء المعارك يرتّب جيشه وفق نظام خماسي: المقدمة ويحتلها الجنود المشاة ووحدة الفرسان الخفيفة، والجناحان الميمنة والميسرة، حملة القسي والنبال وأكثرهم من أهل الثغور، والقلب يتمركز فيه الفرسان المرابطون المزودون بالأسلحة الثقيلة والخفيفة، والمؤخرة ويقودها الأمير بنفسه وتتألف من صفوة الجنود والحرس، وكان لكل قسم من هذه الأقسام قائده الخاص، ويجتمع قادة الوحدات قبيل المعركة على شكل مجلس حربي لتلقي الأوامر والتعليمات من القائد الأعلى يوسف[2].

وتطورت فنون القتال عند المرابطين وأهدى ابن الصيرفي إلى الأمير تاشفين بن علي قصيدة احتوت على فنون الحرب والقتال فقال:

أهديك من أدب السياسة ما به ... كانت ملوك الفرس قبلك تولع
لأنني أدري بها ولكنها ... ذكرى تحض المؤمنين وتنفع
خندق عليك إذا ضربت محلة ... سيان تتبع ظاهراً أو تتبع
حارب من يخشى عقابك بالذي ... يخشى وهو في جود كفك يطمع

(1) دولة المرابطين، ص(44).
(2) المرجع السابق، ص(172).

قبل التهارش عبئ جيشك مفسحاً حيث التمكن والمجال الأوسع
إياك تعبئة الجيوش مضيقاً والخيل تفحص بالرجال وتمزع
حصن حواشيها ولكن في قابها واجعل أمامك منهم من يشجع
واحذر كمين الروم عند لقائها وأمض كمينك خلفها إذا تدفع
لا تبقين خلفك عندما تلقى العدو فشره متوقع
واصدمه أول وهلة لا ترتدع بدءاً تقدم فالنكوص يضعضع[1]

ونستطيع أن نستخرج بعض فنون الحرب التي أوصى بها الشاعر في قصيدته للأمير تاشفين بن علي:

1 - ضرورة حفر الخنادق حول المدن لحمايتها من أي خطر خارجي.

2 - ضرورة تعبئة الجيوش وتنظيمها قبل المعركة بوقت كاف لكي تدخل هذه الجيوش إلى المعركة، وهي على أهبة الاستعداد، وحتى لا يأخذها العدو على غرة.

3 - ضرورة وضع أقوى الفرق العسكرية في جناحي الجيش، وفي المقدمة، بينما يقود القائد العام للجيش المعركة من قلب جنده.

4 - ضرورة نصب الكمائن خلف خطوط العدو.

5 - عدو القتال وظهورهم إلى الماء، لأن في ذلك هلكة لجيوشهم.

6 - ضرورة إحداث عنصر المفاجأة في بداية المعركة، عن طريق الصدام مع العدو، مع ضرورة التقدم وعدم التقهقر.

هذه بعض الفنون العسكرية التي طبقت في دولة المرابطين.

وكان المرابطون في بداية أمرهم قليلي الخبرة بفن الحصار لاعتمادهم على قوات الفرسان المستعدة دائماً للهجوم إلا أنهم بعد فترات من جهادهم استطاعوا أن يتقنوا فن الحصار، وتجلى ذلك بوضوح خلال حصارهم لقلعة شنتيرين الحصينة، وتمكنهم من التغلب عليها، كما ظهرت براعتهم في هذا الفن أثناء الحصار الذي فرضته الجيوش الإسلامية على مدينة غرناطة لحمايتها من ألفونسو المحارب خلال غزوته الكبرى للأندلس التي كان يهدف من ورائها تلبية دعوة النصارى المعاهدين في مدينة غرناطة إلى نصرتهم.

(1) تاريخ المغرب والأندلس، ص(300).

وضرب المرابطون الحصار، وكان موفقاً وحقق نتائجه المطلوبة.

وكما أتقنوا فن ضرب الحصار، فقد تفوقوا أيضاً في فن التخلص من الحصار، كما حدث في تخلصهم من الحصار الذي ضربه الموحدون على مراكش عام 524هـ ودام ما يقرب من أربعين يوماً، ثم تمكنوا وأوقعوا بالموحدين هزيمة منكرة عند البحيرة[1].

واهتم المرابطون بجميع الأسلحة المعروفة في زمانهم من نشاب وسهام ورماح وسيوف ودروع ورعادات ومزاريق ودرق لمطية والأطاس.

و - الأسطول:

ومع توسع المرابطين في المغرب الأقصى واستيلائهم على معظم مدنها ولم تبق إلا طنجة وسبتة، شعر الأمير يوسف بأهمية الأسطول البحري لما وصلت دولته إلى شواطىء البحر الأبيض، وبعد القضاء على دولة برغواطة صاحبة الأسطول البحري بدأ يوسف يهتم بتطوير أسطوله، واستفاد من خبرات أهل الأندلس في ذلك، وأصبح أسطول المرابطين يتقدم نحو الهيمنة على البحر المتوسط، وأثمرت جهود يوسف في الاهتمام بالأسطول في زمن ابنه علي.

وأصبح أسطول المرابطين بفضل الله تعالى ثم قادته الكبار وعلى رأسهم أبو عبد الله بن ميمون قوة ضاربة هددت النصارى في جنوب البحر المتوسط ونفَّس الله به كربات مسلمي الشمال الإفريقي، وحقق أسطول المرابطين انتصارات تجاوزت كل تقدير وحسبان[2].

ز - استيلاء المرابطين على جزر البليار:

كانت جزيرة البليار خاضعة لمجاهد العامري صاحب دانية الذي استقل بملكها سنة 405هـ، وولى عليها بعض الولاة، ولما قتل مجاهد في سنة 436هـ تولى ابنه على الذي وقع في أسر بني هود عام 468هـ ومات في سرقسطة سجيناً عام474هـ، وكانت جزيرة ميورقة تابعة لجزر البليار وكان بها مبشر بن سليمان الذي أعلن استقلاله بميورقة، وأما مدينة دانية فضمها المقتدر بن هود إلى سرقسطة، ولما ضم المرابطون

(1) تاريخ المغرب والأندلس، ص(311).

(2) تاريخ المغرب والأندلس، ص(311).

ممالك الطوائف تركوا مبشر بن سليمان صاحب البليار حراً تقديراً لجهوده التي بذلها لصد النصارى، وما اشتهر به من غيرة على مصالح المسلمين، وقدرته الفذة في حماية ملكه من غارات النصارى المتتابعة فضلاً عن كونه أقر العدل وأرضى الرعية، وهكذا أصبح مبشر يحكم الجزائر الشرقية في عهد يوسف بن تاشفين وفي السنوات الأولى من حكم علي بن يوسف إلى عام 508هـ.

وعندما تحالف النصارى من أمراء فرنسا والبرتغال وإسبانيا وقرروا القضاء على جزر مبشر بن سليمان خرجوا له في خمسمائة سفينة وضربوا على جزيرة ميورقة حصاراً عنيفاً وراسل مبشر أمير المسلمين علي بن يوسف لنجدته ونصرة المسلمين، وتوفي مبشر بن سليمان أثناء الحصار وقام بعده قريبه الربيع بن سليمان بن ليون وسقطت ميورقة عام 508هـ وقتل النصارى من المسلمين وسبوا نساء المسلمين وعاثوا في الأرض فساداً ونهباً وتخريباً.

وعندما اقترب أسطول المرابطين بقيادة القائد البحري ابن «تافرطاست» وجد النصارى قد رحلوا وتركوها كأن لم تكن بالأمس، وفي الحال شرع ابن تافرطاست في تعمير الجزيرة وأعاد إليها الفارين من سكانها، وكان قد لجأ منهم إلى الجبال جموع غفيرة، وبذلك أصبحت تلك الجزر تابعة لدولة المرابطين الفتية.

وكان لإسطول المرابطين الفضل بعد الله في التصدي لأطماع النورمنديين في مدن الشمال الإفريقي. وكان لإسطول المرابطين جهاد مشكور في سواحل أوروبا الجنوبية مما عزز من هيبة المسلمين في نفوس النصارى الحاقدين فأغار على سواحل حليقية وقطلونية وإيطاليا والإمبراطورية البيزنطية[1].

ومن أشهر قادة الأسطول المرابطي أبو عبد الله بن ميمون وتوارث أبناؤه من بعده قيادة أساطيل المرابطين ولعبت أسرة بني ميمون دوراً ريادياً في حماية ثغور المسلمين والذود عن حوزتهم وأعراضهم وأموالهم وعقيدتهم.

ح - موانئ أسطول المرابطين:

كانت المرية من أكبر موانىء الأسطول المرابطي في الأندلس، وكان بهم قسم كبير من أسطول المرابطين بقيادة أمير البحر أبي عبد الله محمد بن ميمون، وكان

(1) تاريخ المغرب والأندلس، ص(311).

بالمرية دار صناعة للسفن، ثم تأتي بعد المرية مدينة دانية التي تعتبر مقر قيادة الأسطول المرابطي في الأندلس.

وكانت موانىء أسطول المرابطين تنتشر على شواطىء سواحل المغرب والأندلس، ومن أشهرها طنجة، وبجاية وإشبيلية والجزيرة الخضراء، وجزء البليار[1].

إن الشمال الإفريقي لا عزة لشعوبه ولا كرامة إلا بالتمسك بالمنهج الرباني وتربية شعوبه على الانقياد لمنهجه الرشيد، ويحتاج ذلك لعلماء ربانيين وقادة سياسيين يعرفون قيمة دينهم، ويؤمنون بمنهج ربهم، ويستعدون لجهاد عدوهم ويهتمون بإحياء روح الجهاد، ويغرسون معاني الشهادة في شعوبهم حتى تتدفق دماء الإسلام من جديد في شراييهم، ليعملوا على إرجاع الأندلس المفقود ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً.

(1) تاريخ المغرب والأندلس، ص(112).

المبحث الرابع

النظام المالي في عصر المرابطين

حرص المرابطون في دولتهم عى إسقاط الضرائب غير المشروعة عن كاهل شعوبهم التي فرضها الزناتيون في المغرب وملوك الطوائف في الأندلس، وكذلك المكوس والرسوم والضرائب في جبل طارق، ولم يفرض المرابطون في دولتهم رسم مكس أو معونة خراج لا في حاضرة ولا في بادية، واتبعوا نظاماً مالياً يقوم على قواعد الإسلام، وكان هذا النظام ظاهر المعالم في زمن الأمير يوسف بن تاشفين الذي التزم بالكتاب والسنة في جمع الأموال وتوزيعها، فاعتمد على الزكاة والعشر والجزية وأخماس الغنائم، وجب بذلك من الأموال على الوجه الشرعي ما لم يجبه أحد، وترك في خزائنه مبلغ ثلاثة عشر ألف ربع من الورق وخمساً وأربعين ألفاً من دنانير الذهب[1]. وأما في عصر علي بن يوسف فاختلف الأمر وفرض الضرائب على بعض السلع، وفرض ضريبة جديدة على مدن الأندلس الهامة، وكان يخصص دخلها لإقامة أسوار جديدة وترميم الأسوار القديمة، وكان سبب فرض هذه الضريبة دخول ألفونسو المحارب للأندلس غازياً عام 519هـ فاضطر لتحصين المدن وترميم الأسوار وتقوية الجيوش ففرض ضرائب تساعده في تسديد هذه النفقات التي لا غنى عنها.

أولاً: العملة:

كانت العملة الرئيسية لدولة المرابطين هي الدينار الذهبي الذي كان عماد الاقتصاد في الدولة، وظلت هذه العملة المرابطية الذهبية مستخدمة لعدة قرون حتى بعد سقوط الدولة المرابطية. كما استخدم المرابطون العملة الفضية المعروفة بالدرهم الفضي، لتسهيل المعاملات التجارية.

---

(1) دولة المرابطين، ص(179).

وانتشرت دور سك العملة في مختلف أجزاء الدولة سواء في المغرب أو في الأندلس مثل أغمات، تلمسان، سجلماسة، فاس، مراكش، سبتة، مكناسة، طنجة، شاطبة، إشبيلية، دانية وغرناطة، قرطبة، مالقة، مرسية، سرقسطة، وغيره[1].

(1) تاريخ المغرب والأندلس، ص(320).